علي أحمد باكثير

# والإسلام ماه

يطلب من :
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

( قرآن كريم )

هذه قصة تجلو صفحة رائعة من صفحات التاريخ المصرى فى عهد من أخصب عهوده وأحفلها بالحوادث الكبرى والعبر الجلى . يطل منها القارىء على المجتمع الإسلامى فى أهم بلاده من نهر السند إلى نهر النيل وهو يستيقظ من سباته الطويل على صليل سيوف المغيرين عليه من تتار الشرق وصليبيى الغرب ، فيهب للكفاح والدفاع عن أنفس ما عنده من تراث الدين والدنيا .

ويشاء الله أن تحمل مصر لواء الزعامة فى هذا الجهاد الكبير ، فتحمى تراث الإسلام المجيد بيومين من أيامها عظيمين كلاهما له ما بعده : يوم الصليبيين فى فارسكور ، ويوم التتار فى عين جالوت .

وبطلها الملك المظفر قطز يضرب بنزاهته وعدله ، وشجاعته وحزمه ، وصبره وعزمه ، ووفائه وتضحيته ، وحنكته السياسية وكفايته الإدارية ، وإخلاصه فى خدمة الدين والوطن مثلا عاليا للحاكم المصلح ، والرجل الكامل .

وهى بعد شهادة ناطقة بأن فى هذا الشعب الوديع الذى يسكن على ضفاف النيل قوة كامنة إذا وجدت من يحسن استثارتها والانتفاع بها أتت بالعجائب ، وقامت بالمعجزات .

# الفصل الأول

قال السلطان جلال الدين ذات ليلة للأمير ممدود ابن عمه وزوج أخته ، وكان يلاعبه الشطرنج فى قصره بغزنة : « غفر الله لأبى وسامحه ! ما كان أغناه عن التحرش بهذه القبائل التترية المتوحشة . إذن لبقيت تائهة فى جبال الصين وقفارها ، ولظل بيننا وبينهم سد منيع » .

فنظر إليه ممدود وقد أدرك أن جلال الدين يريد أن يطوى بساط الشطرنج ، فقال له : « أجل يا مولاى ، إن عمى خوارزم شاه أخطأه التوفيق فيما ذكرت من إثارة هذه القبائل التترية . ولكنى أرى أنه ليس لنا أن نلومه إلا بمقدار ، فقد كان رحمه الله ـــ أعظم ملوك عصره وأوسعهم ملكا وأشدهم قوة ، وكان لا بد له من التوسع المطرد لئلا يعطل جنوده وجحافله العظيمة عن العمل . فآثر أن يكون ذلك فى بلاد لم يدخلها الإسلام بعد ، حتى يجمع بذلك بين خدمة دنياه بتوسيع رقعة ملكه ، وخدمة دينه بنشر الإسلام فى أقصى البلاد » .

فقال له جلال الدين وقد بدا على وجهه التأثر والحزن العميق :

« ولكن ماذا جنى عمك من هذا يا ممدود ، غير فقدان الجزء الأعظم من مملكته ، وإغراق بلاد الإسلام بهذا الطوفان العظيم من التتار المشركين ؟ وأخشى أن يكون أبى مسئولا عن هذا كله أمام ربه » .

ـــ حسبه أنه جاد بنفسه فى سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام . فقد ظل يقاتلهم ويجالدهم جلادا لا هوادة فيه ، إلى أن كبا به الحظ ، فمات شريدا وحيدا فى جزيرة نائية » .

ـــ ليت الأمر ينتهى عند جوده بنفسه ، إذن لبكينا ملكا عظيما عز علينا فراقه ، واحتسبناه عند الله والدا كريما آلمنا فقده . ولكن لمصيبته ذيولا لا أحسبها تنتهى حتى تجرى دماء المسلمين أنهارا ، وتشتعل سائر بلادهم نارا . إن هؤلاء التتار لرسل الدمار والخراب ، وطلائع الفساد ، لا يدخلون مدينة حتى يدمروها ويأتوا فيها على الأخضر واليابس ، ولا يتمكنون من أمة حتى يقتلوا

رجالها ، ويذبحوا أطفالها ، ويبقروا بطون حواملها ، ويهتكوا أعراض نسائها ...

وهنا طغى البكاء على جلال الدين ، وعاقه برهة عن الاستمرار فى كلامه ، ففهم ممدود ما جال بخاطره ، ولم يلبث أن شاركه فى البكاء فاستخرطا فيه ، وما كان بكاؤهما لأمر هين ، فقد تذكرا ما وقع لنسوة من أهلهما فيهن أم خوارزم شاه وأخواته ، فقد بعثهن خوارزم شاه من الرى ، حين تفرق عنه عسكره وأيقن بالهزيمة ، ليلحقن بجلال الدين فى غزنة ، وبعث معهن أمواله وذخائره ، التى لم يسمع بمثلها . فاتصل ذلك بعلم التتار فتعقبوهن ، وقبضوا عليهن فى الطريق ، فأرسلوهن مع الذخائر والأموال إلى جنكيز خان بسمرقند .

ومسح جلال الدين دموعه وطفق يقول : « أواه يا ممدود ! ليس فى الدنيا مصيبة أعظم من مصيبتنا . أبعد العز الرفيع ، والحجاب المنيع ، تساق والدة خوارزم شاه وأخواته إلى طاغية التتار ؟ كل فاجعة فى الحياة تهون إلا هذه . أى لذة تبقى فى العيش بعد تركان خاتون ؟ ليت شعرى ما جالهن هناك ؟ كيف يعشن بين أولئك الوحوش ! يا ليت أبى قتلهن بيده ، أو وأدهن فى التراب ، أو ألقاهن فى اليم ، خيرا من أن يقعن سبايا فى أيدى القوم ، ويلقين الذل والهوان عندهم . وما أشك أنه مات فى الجزيرة غمًّا حين بلغه أمرهن .

— الله لهن يا مولاى ! لعل الله أن يستنقذهن من أيديهم بسيفك وسيوفنا معك .

— هيهات يا ممدود ! أبعد أن دانت لهم خراسان كلها ، ودخلوا الرى ، وملكوا همذان ، وعصفوا برنجان وقزوين ، واتخذ طاغيتهم سمرقند قاعدة له يبعث منها جيوشه وسراياه فى البلاد ، تطمع فى أن نغلبهم بسيوفنا ونجليهم عن بلادنا ؟ لقد كان لوالدى عشرون ألفا من الفرسان فى بخارى ، وخمسون ألفا فى سمرقند ، وأضعافها معه ، فما أغنت تلك الجحافل الجرارة عنه شيئا ، وهو ما هو فى شجاعته وبأسه ، ونفوذه وصرامته ، فما ظنك بى وأنا دونه فى كل شىء ، وقد قوى التتار وعظم سلطانهم فى البلاد .

ـــ إنك ابن خوارزم شاه ، ووارث ملكه وخليفته على بلاده ، وما يكون لك أن تيأس من هزيمة عدوه ، وطرده من بلاد رعاياه .

ولقد كانت الحرب بين أبيك وبين هؤلاء سجالا ، فتارة يهزمهم وتارة يهزمونه ، حتى نفذ القضاء فيه لأمر طواه الله فى علمه ، فمات شهيدا فى جزيرة نائية ، ولكن لم يمت سره فهو حى فيك ، ومن يدرى لعل الله ينصر بك الإسلام والمسلمين ، ويجعل نهاية الأعداء على يديك .

ـــ إن خليفة المسلمين ، وملوكهم وأمراءهم فى بغداد ومصر والشام ، يعلمون بما حصل ببلادنا من نكبة التتار ، وقد استنجد بهم أبى مرارا فلم ينجدوه ولم يصغوا لندائه ، فدعهم يذوقوا من وبالهم ما ذقنا ، وحسبى أن أدفع شرهم عن البلاد التى ملكنى عليها أبى فلا أدعهم يخلصون إليها .

ـــ إن ملوك المسلمين وأمراءهم فى مصر والشام مشغولون برد غارات الصليبيين الذين لا يقلون عن التتار خطرا على بلاد الإسلام . فلهم وحشية التتار وهمجيتهم ، ويزيدون عليهم بتعصبهم الدينى الذميم ، وهم لا يغزون أطراف بلاد الإسلام ، ولكنهم يغزونها فى صميمها .

ـــ لقد كان هذا الذى تذكره فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، وأستاذه نور الدين قدَّس الله روحيهما ، أما من بعدهما من ملوك مصر والشام فإنهم مشغولون بقتال بعضهم بعضا وكيد بعضهم لبعض ، ولا يجدون حرجا من أن يستنجد أحدهم الصليبيين على منافسه من ملوك المسلمين . والله لولا التتار على الأبواب لدلفت إلى أولئك الملوك الخائنين ، فضربت أعناقهم واستصفيت بلادهم ، وانتقمت منهم لأبى ، إذ استنجدهم فلم ينجدوه .

ـــ ما عليك من هؤلاء فحسابهم على الله ، وإن كلًّا منَّا لعلى ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتينَّ من قِبله ، وعسى الله أن يجعل من أبيك الشهيد ومنك فى شرق بلاد الإسلام ، مثل نور الدين وصلاح الدين فى غربها . فهيا بنا نجمع جموعنا فنناجز هؤلاء التتار قبل أن يصلوا إلينا .

ـــ قد قلت لك إنى سأحصن حدود بلادى وأمنعها منهم وسأضطرهم بذلك إلى تركها والتوجه إلى الغرب حيث ملوك الإسلام المتقاعدون .

ـــ إنك لن تستطيع حماية بلادك منهم إذا غزوك فى عقرها ما لم تمش إليهم فتلقهم دونها بمئات الفراسخ ، فإن أظهرك الله عليهم فذاك ، وإن تكن الأخرى كان لك من بلادك ظهر تستند إليه وتستعد فيه . وبعد ، فإن جنكيز خان لن يتوجه إلى الغرب حتى يفرغ من الشرق ، ولن يمس العراق والشام حتى يقضى على ممالك خوارزم شاه أجمعها .

فأطرق جلال الدين هنيهة ، وطفق يعرك جبينه بيده كأنه يدير فى رأسه موازنة بين رأيه ورأى ابن عمه ، ثم رفع رأسه وقال : « لا حرمنى الله صائب رأيك يا ممدود ، فما زلت تحاجنى حتى حججتنى ، وهأنذا مقتنع بسداد رأيك ، وماض لما تشير به علىّ ، وحسبى أنك ستكون يدى اليمنى فيما أنهض به من الأمر .

ـــ سأكون يا بن عمى ويا مولاى أطوع لك من خاتمٍ فى يدك ، وسأقاتل حتى أقتل دونك .

ـــ إنك لم تدع لى فى قتال هؤلاء عذرا يا ممدود ، رحم الله أبى ! لقد ورثنى ملكا لا يغبط صاحبه عليه ، وحملنى عبئا ثقيلا .

ـــ سيكون لك من معونة الله وتوفيقه ، إذا أخلصت الجهاد فى سبيله ، ما يشرح لك صدرك ، ويضع عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ويرفع لك بهزيمة التتار ، عند الله وعند الناس ذكرك !

فتبسم جلال الدين ، وتهللت أساريره من البشر ، وقال : « بشّرك الله بالخير يا ممدود ، إن الله تعالى يقول : ( فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب ) .

ثم رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أرغب إليك فوفقنى لما تحبه وترضاه » .

وكان الليل قد انتصف إذ ذاك ،وشعر ممدود أن قد آن أن ينصرف إلى قصره ليأخذ جلال الدين قسطه من الراحة ، فجمع قطع الشطرنج فى صندوقها الذهبى المرصَّع بالجواهر ، ووضعه فى صندوق آخر من الأبنوس المطعم بالعاج ، وقام من مجلسه فقبَّل رأس جلال الدين واستأذنه فى الانصراف ، فقام له جلال الدين ليشيعه إلى باب البهو كعادته ، ولكن حلا لجلال الدين إذ ذاك أن يمشى مع رفيقه إلى نهاية الحديقة التى تفصل بين قصره وبين القصر الذى ينزل فيه ممدود وأهله .

فأراد ممدود أن يصرفه عن ذاك قائلا : « حسبك يا بن عمى ، إنك بحاجة إلى النوم لتنشط غدا لما أنت بسبيله » .

فقال له جلال الدين : « دعنى يا ممدود أتجوَّل معك قليلا فى الحديقة ، أستنشق هواءها العذب وأتمتع بجمالها فى هذه الليلة القمراء ، فمن يدرى لعل بدر التم لا يطلع عليها بعد ليلتنا هذه وأنا فى هذا القصر » .

فأخذ ممدود بيد جلال الدين ونزل معه السلم المرمرى وهو يقول له : « بل أبقى الله قصورك عامرة بك يا مولاى » . حتى انتهيا إلى الدهليز حيث وجدا الجرس قائمين بالخدمة ، فأشار لهم جلال الدين أن يبقوا مكانهم ، وانحدر مع ممدود إلى الحديقة ، فأخذا يمشيان بين الكروم والأشجار فى ممرات تفصل بينها مفروشة بالرمل الناعم الأصفر . وكانت السماء صافية الأديم ، والبدر يرسل أشعته البيضاء على غصون الشجر ، فيتألف من ذلك مزاج من اللونين ، رفيق بالعين ، ترتاح إلى رونقه الحالم البهيج ، وعلى الكروم المعروشة فتبدو عناقيد العنب كأنها عقود من اللؤلؤ المنضود ، وعلى أشجار التفاح بثمارها المتهدلة كأنها حسان خفِرات غازلها القمر العابث فأخذت تلوذ منه بورق الغصون ، ويسقط فضل أشعته على الأرض فينثر فيها دنانير تمنع الكف ما تيح العيون .

وتذكر جلال الدين أخته جهان خاتون فسأل زوجها عن حالها ، فإنه لم يرها

منذ أيام ، فأجابه ممدود : « هى فى رعاية الله ورعايتك بخير ، وما منعها من المجىء إليك إلا ثقل الحمل » .

ـــ « أجل ... لطف الله بها وبزوجتى عائشة خاتون ، فإنهما فى شهرهما التاسع ، فبلّغها تحيتى ، وعسى أن أتمكن من زيارتكم غدا إن شاء الله » .

ـــ سنكون سعداء باستقبالك يا مولاى .

ـــ ها نحن أولاء قد وصلنا إلى قصرك .

ـــ ما يكون لى أن أدعك ترجع وحدك ، ولكنى أرافقك إلى قصرك كما رافقتنى إلى قصرى .

فشكره جلال الدين وأعفاه من ذلك ، ولكن ممدودا أبى إلا أن يرافقه فى عودته إلى قصره ، فرجعا فى طريقهما معا حتى إذا بلغا دهليز القصر حيث الحرس واقفون ، قال جلال الدين وهو يبتسم : « هل لى أن أرافقك أيضا يا ممدود ؟ » .

فضحك ممدود وقال له : « إذن ينقضى ليلنا جيئة وذهابا فى الحديقة » ، وودعه وانصرف إلى قصره .

# الفصل الثانى

طلّق جلال الدين ما كان فيه من الدعة والراحة منذ تلك الليلة التى عاهد فيها نفسه على المسير لقتال التتار ، وقضى قرابة شهر وهو يجتهد فى تجهيز الجيش وإعداد العدد وتقوية القلاع فى مدن بلاده ، وبناء الحصون على طول خط السير ، يعاونه فى ذلك صهره ممدود ، حتى إذا تم له من ذلك ما أراد ، عيَّن يوم المسير .

وكان جلال الدين كأغلب ملوك عصره مولعا باستطلاع النجوم ، فهو يستشير المنجمين كلّما همَّ بأمر عظيم . فلما أراد المسير لقتال التتار بعث إلى منجمه الخاص فحضر عنده ، فأمره بالنظر فى طالعه ، فقال له المنجم : « إنك يا مولاى ستهزم التتار ويهزمونك ، وسيولد فى أهل بيتك غلام يكون ملكا عظيما على بلاد عظيمة ، ويهزم التتار هزيمة ساحقة » .

قال له جلال الدين : « ماذا تقول ؟.. يهزمنى التتار وأهزمهم ! » .

فسكت المنجم لحظة كالمتهيب لما يقول ثم قال له : « يا مولاى بل تهزمهم ويهزمونك » .

وكان الأمير ممدود حاضرا ، فأدرك ما ساور جلال الدين من الخوف لما قاله المنجم ، وأشفق على جلال الدين من أن يرجع عن عزمه ، فالتفت إلى المنجم قائلا : « يا هذا لا يعلم الغيب إلا الله ، وإنما جئنا بك لتبشر السلطان لا لتخوِّفه ، وليس السلطان بمن يخاف من تنبؤاتك » .

سكت المنجم هنيهة كمن يقول : ليس هذا بذنبى ولكنه ذنب الكتاب الذى بين يدى ، ثم قال : « إننى عبد السلطان ، إن شاء صدقته ، وإن شاء بشرته » .

فقال جلال الدين : « بل اصدقنى ، لا أريد إلا الصدق ، فقل لى متى يولد هذا الغلام الذى ذكرت ؟ » .

فنظر المنجم فى كتابه وأخذ يحسب ، ثم قال : « إنه يولد فى خلال هذا الأسبوع » .

فنظر جلال الدين إلى ممدود كأنه يعجبه مما يقول المنجم ، ولكن ممدودا لا يشاطر جلال الدين العجب ، ويرى أن المنجم لا بد أن يكون قد ألمَّ بحمل زوجة السلطان وقرب وضعها ، ولا يعز عليه بعد ذلك أن يتنبأ بأنها ستلد ذكرا ، فإذا ولدت أنثى فلا بأس عليه من ذلك لأنه لم يقل يولدللسلطان ، وإنما قال يولد فى أهل بيته . وأقارب جلال الدين فى غزنة وغيرها لا يحصون كثرة ، وربما علم أيضا أن أخت جلال الدين حبلى متم فيكون احتمال مجىء الغلام من إحدى المرأتين أقوى .

هكذا يرى ممدود فى هذا المنجم ، وغيره من المنجمين والضاربين للرمل والقارئين فى الكف . أنهم ليسوا إلا دجالين يدَّعون معرفة الغيب بما أوتوا من براعة وفطنة فى تبين أحوال من يستفتيهم ، وتقصى أسراره ودخائله . وعلى قدر هذه الفطنة والبراعة يوفقون إلى إصابة الحقيقة فى تنبؤاتهم وتخرصاتهم . .

وخطر لممدود فى خلال ذلك خاطر لم يكد يتبينه ويجيل ذهنه فيه حتى ريع لما انطوى عليه من الخطر ؛ فربما تلد زوجته ذكرا وتلد زوجة جلال الدين أنثى ، فيوغر ذلك صدر جلال الدين عليه ، وربما يذهب به إلى أبعد من ذلك فيحمله على قتل الغلام ولو فى السر ، إذا خشى من انتقال ملكه إليه وانقطاعه عن ولده ؛ فهو يعرف حرص الملوك وتهالكهم على أن لا ينقطع الملك عن نسلهم ، وأنهم لا يتحرجون فى ذلك من الفتك بأقرب الناس إليهم وأمسّهم بهم رحِما . ولكنه طرد هذا الخاطر الغريب عن نفسه ، واستعاذ بالله من نزغات الشيطان ، وجعل همه بعد ذلك أن يطعن على التنجيم والمنجمين عند جلال الدين ، ويصرفه عن الاعتقاد بهم والثقة بأقوالهم . وجعل يورد وقائع من التاريخ كذبت فيها تخرصات المنجمين ، ومن أبرزها ما اتفق للخليفة العباسى المعتصم بالله لما أراد أن يسير لفتح عمورية من بلاد الروم ، فنهاه المنجم عن السير فى ذلك اليوم لأن الطالع

لم يكن فى صالحه ، وأنذره بالهزيمة ، فلم يؤثر ذلك فى عزم الخليفة ، وضرب بكلام المنجم عرض الحائط ، وتوجّه ليومه ذاك فكسر جموع الروم وفتح عمورية .

ولكن هذا لم يصرف جلال الدين عن الاهتمام بما قاله المنجم والتفكير فيه . فكثيرا ما يفرح له ويرى فيه بشارة بانتصاره على التتار ، ولكنه لا يلبث أن يحزن حين يذكر أن التتار يهزمونه فى النهاية ، ثم يذكر أمر الغلام فيهون على نفسه الخطب ، ويجد فى ذلك بعض العزاء . إذ يستخرج من ذلك أن المُلك سيدوم فى بيته ، وأن هزيمة التتار الكبرى ستتم على يد أحد أبنائه .

ولم يكن الأمير ممدود بأقل من جلال الدين اهتماما بما تنبأ به المنجم على سوء رأيه فيه وعدم تصديقه به ، فإنه لم يستطع أن يجتث من قلبه الوساوس التى علقت به ، فبقى ذلك الخاطر الغريب يختلج فى صدره نهارا ويؤرقه ليلا ، حتى حرج به وضاق بكتمانه ذرعا ، فأفضى به إلى زوجته جهان خاتون ، وحدَّثها بحديث المنجم ، وشرح لها خوفه من أن تلد هى غلاما وتلد عائشة خاتون جارية .

فشرَكته جهان خاتون فى الخوف ، لما تعلم من طباع أخيها ، ولكنها كتمته فى نفسها وتظاهرت لزوجها بأنها لا تخشى شيئا من ذلك ، لأن أخاها جلال الدين يحبها ويعزها ، ويستحيل أن تمتد يده إلى ابنها بسوء .

وأخذت تدعو الله من يومئذ أن يرزقها ابنة ويرزق أخاها جلال الدين ابنا . ولكن الله لم يستجب لها ، فلم يمض يومان حتى جاءها الطلق فولدت غلاما ، وجاءت زوجة جلال الدين بجارية .

لقد تحقق ما كان يخشاه الأمير ممدود ، فقد تغير جلال الدين لما بشرٌ بالأنثى ، وظل وجهه مسودًّا وهو كظيم ، وأيقن أن الملك سينتقل إلى ابن أخته على وجه من الوجوه فساءه ذلك ، وأحب أن يرى الغلام فذهب إلى قصر أخته ليطمئن على صحتها ، فلما وقع نظره على وليدها وهى ترضعه لم يملك أن

يستر عنها التغير البادى فى وجهه ، وقرأت فى عينه الغدر .

وأرادت جهان خاتون أن تلاطفه بقول يخفف بعض ما يجد فى صدره ، فلم تجد ما أرادت من ذلك ، فسكتت واكتفت بنظرة وجّهتها إلى أخيها أودعت فيها كل معانى الحنو والاستعطاف . وكان زوجها حاضرا فتولّى عنها الكلام فقال : « إنه ابنك يا مولاى وأشبه الناس بك ، لقد نزع إليكم يا آل خوارزم شاه فى كل شىء ، ولم ينزع إلىّ فى شىء » .

فأجابه جلال الدين وهو يتكلف الابتسام ويمسح بيده على خد الطفل : « هذا الذى سيهزم التتار » فبدره ممدود قائلا : « فى ركاب خاله وخدمته إن شاء الله » .

قال جلال الدين : « بل يرث الملك عنى » .

ـــ معاذ الله أن يرث ملكك إلا ابنك الأمير بدر الدين بعد عمر مديد إن شاء الله .

ـــ لم يقل المنجم إن بدر الدين هو الذى يملك بعدى ويهزم التتار .

ـــ إن المنجم أحقر من أن يعرف الغيب يا مولاى . فدع عنك تخرصاته ولا تعبأ بأقاويله .

وهكذا استطاع الأمير ممدود أن يدير الكلام عن الغلام ويصرفه إلى المنجم حيث يختلف رأيه فيه ورأى جلال الدين .

فرأى جلال الدين أن لا فائدة من حجاجه ، وشعر بشىء من الخجل لما بدا منه من الارتياب بطفل صغير لا ذنب له حتى عاتبته عينا أخته النفساء ذلك العتاب الحانى المستعطف الذى كان أفعل فى نفسه من وقع السهام .

وسكت جلال الدين برهة كأنه يعاتب نفسه على ما بدر منه فى حق أخته وزوجها المخلصين فى حبه ، ثم دنا من سريرها وهو يغالب عبرة ترقرقت فى عينيه ، فطبع على جبينها الأبيض الناصع قبلة حارة كأنه يستغفرها مما هجس بخاطره من نية الشر بوليدها ؛ ويعدها بأن يده لن تمتد إليه بسوء ، فلم تجبه

جهان خاتون بغير الدموع تهمر من عينيها .

وجاءت الأنباء بأن التتار دخلوا مرو ، وساروا إلى نيسابور فوضعوا فى أهلها السيف وملكوها ، وأنهم سائرون إلى هراة ، فلم يبق لدى جلال الدين مجال للانتظار فآذن عساكره بالمسير ، وخرج فى ستين ألفا يحث بهم السير حتى لقى طلائع التتار دون هراة . وكانوا قد حاصروها عشرة أيام ثم ملكوها وأمنوا أهلها وتقدموا يبتغون غزنة ، فقاتلهم جلال الدين قتالا عظيما حتى هزمهم وقتل منهم خلقا كثيرا .

وبعث رسلا تسللوا إلى هراة فأخبروا أهلها بما وقع من انكسار التتار ، ففرح الناس فرحا عظيما ، وأخذوا يتنادون بأن خوارزم شاه قد بعثه الله حيًّا من قبره ليطهر البلاد من التتار . ووثبوا على حاميتهم بالمدينة ، فلما عادت فلول التتار إلى هراة ، وعلموا ما وقع من أهلها انتقموا منهم فقتلوا كل من وجدوه من الرجال والنساء والأطفال ، وخربوا المدينة ونهبوا السواد وأتلفوا كل ما لم يقدروا على حمله من الأموال .

وطاردهم جلال الدين فأجلاهم عن هراة ، ثم ما زال يتعقبهم حتى أوصلهم إلى حدود الطالقان ، حيث اتخذها جنكيز خان قاعدة جديدة بعد سمرقند ، يرسل منها بعوثه وسراياه . ثم رأى جلال الدين أن يكتفى فى هذه الغزوة بما أحرزه من الانتصارات عليهم ، وأن لا يهاجمهم فى قاعدتهم الجديدة حتى يستحم ويريح جيوشه من نصب القتال ، ويعد جيوشا أخرى ويستعد استعدادا جديدا لملاقاة أعدائه ، فعاد ببهرة جيشه إلى غزنة بعد أن ترك حاميات قوية فى البلاد التى طرد منها التتار .

وكان يوم قفوله إلى غزنة يوما مشهودا . احتفل به أهلها احتفالا رائعا ، لم يغض من جماله إلا رجوع الأمير ممدود جريحا محمولا على محفَّة ، بعد أن أبلى بلاء حسنا فى قتال التتار ، وأبدى أروع آيات البطولة ، وركب أعظم الأخطار .

حزن جلال الدين لما أصاب صهره الفارس الشجاع ، واهتم بعلاجه اهتماما كبيرا ، وابتغى له أحسن أطباء زمانه ، وأعدق عليهم الأموال ، ووعدهم بمكافآت كبيرة إذا وفّقوا لشفائه ، ولكن جراحه كانت بالغة ، فلم تُجْد فيها مهارة الأطباء ، وأخذت حالته تسوء يوما بعد يوم ، وكان جلال الدين لا يغب زيارته فهو يتردد عليه صباح مساء .

ولما ثقلت عليه العلة وأيقن بدنو الموت ، بعث إلى جلال الدين أن يحضر ، فلما حضر قال له بصوت متقطع وهو يحضن زوجته وابنها الرضيع : « يا ابن عمى : هذه أختك جهان خاتون ، وهذا ابنك محمود ، فأولهما عطفك ورعايتك واذكرنى بخير » .

فبكى جلال الدين ، وأجهشت أخته بالبكاء . وكان ممدود ينظر إليهما وإلى الطفل الرضيع نظرات تائهة . فلما رأى بكاءهما التفت إلى جلال الدين وقال له : « لا تبك يا جلال الدين .. قاتل التتار .. لا تصدق أقوال المنجمين » . وكان قد ثقل حينئذ لسانه ولم يلبث أن لفظ روحه وهو يردد الشهادتين .

مات الأمير ممدود شهيدا فى سبيل الله ولم يتجاوز الثلاثين من عمره ، تاركا وراءه زوجته البارة ، وصبيا فى المهد لما يدر عليه الحول ولم يتمتع برؤيته إلا أياما قلائل ، إذ شغله عنه خروجه مع جلال الدين لجهاد التتار ، ولم يكن له — وهو يودع هذه الحياة ونعيمها — من عزاء عنها إلا رجاؤه فيما أعد الله للشهداء المجاهدين فى سبيله من النعيم المقيم والرضوان الأكبر .

وفتَّ موته فى عضد جلال الدين ، إذ فقد ركنا من أركان دولته ، وأخاً كان يعتز به ويثق بإخلاصه ونصحه ، ووزيرا كان يعتمد على كفايته ، وبطلا مغوارا كان يستند إلى شجاعته فى حروب أعدائه . فبكاه أحر البكاء ، وحفظ له جميل صنعه وحسن بلائه معه ، فرعاه فى أهله وولده ، وضمهما إلى كنفه ، وبسط

لهما جناح رأفته ، واعتبر محمودا كابنه يحبه ويدلّله ولا يصبر على رؤيته ، وكثيرا ما يجتذبه من يدى والدته فيحمله إلى صدره ، فربما نال الصبى على ثيابه فلا يزيده ذلك إلا حبا وتعلقا به . وكان حين يرجع من قتال التتار يسأل أول ما يسأل عن محمود أين هو ؟ فيجرى إليه فيحضنه ويوسعه ضمًّا وتقبيلا ، ثم يثنى بابنته جهاد التى كان يحبها ولا يصبر عن رؤيتها كذلك .

وهكذا نشأ الطفل محمود والطفلة جهاد فى بيت واحد ، تغذوهما وتسهر عليهما أمّان ، ويحنو عليهما أب واحد . فكانا يحبوان معا فى دهاليز القصر وأبهائه ، وربما خرج بهما الخدم إلى حديقة القصر فى الصباح الباكر فطفقا يدرجان على العشب يتمرنان على المشى ووالدتاهما تنظران إليهما من شرفة القصر ، تطالعان فى عيونهما الحاضر الباسم ، وتتعزيان به عن الماضى الحزين والمستقبل الغامض ، فإذا وقع أحد الطفلين على الأرض فى غير بأس ضحكتا ضحكة هادئة ، ثم رجعتا إلى ما انقطع من حديثهما ، وربما تقع جهاد على الأرض فيدنو منها محمود ليساعدها على النهوض ، فتنظر إحدى الوالدتين إلى الأخرى وعلى ثغرها ابتسامة وفى عينيها سؤال حائر .. أيقدر لهذين الطفلين البريئين أن يشبا معا فى هذا العيش الرغيد فيكون أحدهما للآخر ، أم تحول دون ذلك تقلبات الدهر وفجاءات القدر ؟

وكيف تأمنان غدر الزمان وسطوات الغير ، وتطمئنان إلى ما هما فيه من نعيم العيش وعز الملك ، وقد شهدتا بعينيهما كيف انقض التتار على مملكة خوارزم شاه ففطعوا أوصالها ومزقوها شر ممزق ، وكيف هوى ذلك الملك العظيم من أوج سلطانه ، وانهزمت جيوشه التى كانت تملأ السهل والجبل ، وتفرقت عنه جموعه حتى لجأ إلى جزيرة نائية مات فيها وحيدا شريدا .

ولا ينقص من قلقهما على المستقبل أن جلال الدين قد استطاع لذاك الحين أن يهزم التتار فى كل موقعة لقيهم فيها ، وأن يدفع غائلتهم

عن البلاد التابعة له ، وأن يتحدى جنكيز خان طاغيتهم الأكبر فيرسل إليه كتابا يقول له فيه : « فى أى مكان تريد أن تكون الحرب ؟ » فإن هذا لا يعنى أنه قضى على خطرهم واستراح من هجماتهم . وقد كان خوارزم شاه أقوى وأعظم هيبة وأكثر جنودا منه ، واستطاع أن ينتصر عليهم فى معارك جمة ، ولكنهم غلبوه فى النهاية بكثرة عددهم وتوالى إمداداتهم ، وتدفقهم كالسيل ، وانتشارهم كالجراد . وأن الأمل لضعيف فى أن يقوى جلال الدين على ما لم يقو عليه والده العظيم .

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى حققت الأيام مخاوفهما ، فقد وردت الأنباء بأن جنكيز خان قد استشاط غضبا من تحدى جلال الدين له ، فسيَّر عسكرا أعظم من عساكره التى بعثها من قبل ، وسماه جيش الانتقام ، وجعل أحد أبنائه عليه ، فاندفعوا كالسهام وطفقوا يخترقون البلاد حتى وصلوا إلى أبواب كابل .

فقصدهم جلال الدين بكل ما عنده من الجيش ، فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا دام ثلاثة أيام بلياليها . وكان جلال الدين يصرخ فى جنوده أثناء المعركة : «أيها المسلمون أبيدوا جيش الانتقام » . وقد انتهى القتال بهزيمة التتار لما أبداه المسلمون من المصابرة والمرابطة ، ورجع معظم الفضل فى ذلك إلى قائد باسل من قواد جلال الدين يدعى سيف الدين بغراق ، استطاع أن يكيد التتار ، فانفرد بفرقته من الجيش وطلع خلف الجبل المطل على ساحة القتال ، ولم يشعر التتار إلا بهذا السيل من المسلمين ينحدر عليهم من الجبل فاختلَّت صفوفهم ، فأوقع بهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وغنموا ما معهم من الأموال التى نهبوها من البلاد التى مروا بها .

وهنا ينزغ الشيطان بين قواد جلال الدين ، فيختلفون على اقتسام الغنائم ، فيغضب من جراء ذلك الأمير سيف الدين بغراق ، وينفرد بثلاثين ألفا من خيرة الجنود . وتوسل إليه جلال الدين أن يرجع إلى عسكره ، فلم يقبل وذهب غاضبا

وسار معه الثلاثون ألفا من الجنود ، فضعف المسلمون من جراء هذا الانقسام ، وعلم التتار بالأمر ، فجمعوا فلول جيشهم ، وانتظروا حتى تجيئهم أمداد من جنكيز خان .

وبلغ جنكيز خان ما وقع بجيشه من الهزيمة ، فاشتد غيظه ، وزاد حنقه ، فجمع جيوشه وقادها بنفسه ، وتقدم لقتال جلال الدين ، فلم يثبت له جلال الدين ، وفر إلى غزنة فتحصن بها أياما ، ثم رأى أن لا قبل له بدفع المغيرين عنها ،وخشي من وقوعه ووقوع أهله فى قبضة عدوه ، فحزم أمتعته ، وجمع أمواله وذخائره ، فحملها ورحل بأهله وحاشيته صوب الهند ، وسار معه سبعة آلاف من خاصة رجاله ، فعبر بهم ممر خيبر ، ولم يكد يفضى إلى سهل الهند حتى لحقته طلائع جنكيز خان ، فكرّ عليهم وقاتلهم وشردهم ، ولكنه أيقن بالهزيمة حين توالت عليه الجموع ، فتقهقر برجاله إلى نهر السند ، وعزم أن يخوضه إلى العدوة الأخرى ، ولكن العدو عاجله قبل أن يجد السفن اللازمة لحمل أهله وحريمه وأثقاله ، فأقبل على أهله ونسائه وفيهم والدته — وكانت قد لحقت به من خوارزم قبل سقوطها فى أيدى التتار — وأخته جهان خاتون وزوجته عائشة خاتون ، فلما رأينه صحن به قائلات : « لا ينبغى أن نقع فى أيدى التتار .. بالله عليك اقتلنا بيدك وخلصنا من الأسر والعار » ..

صادف هذا القول هوى فى نفس جلال الدين . إذ كان قد عزم على قتلهن خيفة أن يقعن أسيرات فى أيدى العدو ، فأمر رجاله بإغراقهن فى نهر السند ، فابتلعهن اليم وهو على حافة النهر ينظر إليهن بعين دامعة ، ويشيعهن بقلب مكلوم .

ولم يدع له العدو فرصة للتحسر على أعز أحبابه فى الحياة والتفكير فى هول ما صنع بهم ؛ فأمر رجاله بخوض النهر ، وألقى بنفسه فى مقدمتهم فاندفعوا يسبحون فى أثره ، وذلك حين مالت الشمس للغروب ، وتلونت مياه النهر بحمرة الشفق ، وما ابتعدوا عن الشاطىء إلا قليلا حتى أقبلت طلائع العدو فوقفوا على

حافة النهر وانبرى رماتهم فأعملوا قسيهم ، فكانت السهام تتساقط عليهم كالمطر، فأصيب كثير من رجال جلال الدين، ولولا سدول الظلام وحيلولته دون رؤيتهم لفنَوا عن بكرة أبيهم . وأوفى جنكيز خان على النهر ، وكان الليل قد اعتكر وهو على جواده ، والمشاعل تضيء من حوله ، فلم يتبين أحدا فى النهر ، فأرسل ضحكة رنت فى جنبات السهل ، وأخذ يهز سيفه فى الهواء ويقول : « هأنذا قضيت على خوارزم شاه وولده ، وشفيت غليلى وأخذت بثأرى » وأمر رجاله بالرحيل ، فرجعوا من حيث أتوا .

وقضى السابحون شطرا من الليل وهم يغالبون الأمواج ، ويتنادون بينهم بالأسماء ، فيتعارفون بذلك ، ويتواصون بينهم بالصبر ، فربما كلَّ أحدهم من طول السباحة فاستغاث بإخوانه فيحمله مَن يلونه ريثما يستعيد شيئا من نشاطه . وكان صوت جلال الدين يسمع من حين إلى حين يحدوهم فى المقدمة ، ويحضهم على الصبر والمغالبة ، فكانوا يستأنسون به . ولكنه انقطع بعد ذلك فلم يسمعوه ، فذهبت بهم الظنون كل مذهب ، وصاح بعضهم : « قد غرق السلطان فما بقاؤكم بعده ؟ » فاستسلم فريق منهم للأمواج فغرقوا .

وأدرك أحد خواص رجال السلطان الخطر ، فأخذ يقلد صوت جلال الدين ويحدوهم كما كان جلال الدين يفعل لئلا يستيئس الباقون ، فكان لعمله هذا أثر جميل فى نفوسهم ، إذ انتعشت أرواحهم واستأنفوا صبرهم وجهادهم ، ورجع من عزم منهم على الاستسلام للموت عن عزمه ، وبقوا كذلك حتى بلغ السابقون منهم الضفة قبيل منتصف الليل ، فصاحوا بإخوانهم أن قد وصلنا البر . فمنهم من خرج من الماء فارتمى على الأرض من الإعياء ، ومنهم من بقى لديه فضل من القوة فأخذ يساعد الآخرين على الطلوع بجذب أيديهم أو بإرخاء ما بقى عليهم من الثياب لهم حتى يتعلقوا به . واستمر هذا العمل إلى الثلث الأخير من الليل حين لم يبق على الماء أحد من الناجين ، فوضع الجميع رءوسهم على الأرض

وغرقوا فى السبات العميق .

* * *

وطلع الصباح على أربعة آلاف من القوم صرعى فى الصعيد يتقلبون على جنوبهم لم يوقظهم إلا حر الشمس ، فنهضوا من نومهم حفاة عراة لا يكاد يسترهم شيء من الثياب ، والتمسوا سلطانهم بينهم ، فلم يجدوه ، فأصابهم هم عظيم . فأوصاهم الرجل الذى قلّد صوت السلطان فى النهر بأن لا ييأسوا من لقائه ، فربما سبقهم السلطان إلى الضفة من موضع آخر فلجأ إلى قرية من القرى ، وقال لهم إن الرأى أن يبقوا هناك ويتبلغوا بما يجدونه من أوراق الشجر وثماره ، وما يقع فى أيديهم من صيد البر والبحر وأن لا يبرحوا مكانهم ذاك حتى يأتيهم خبر السلطان ، أو تعود إليهم قواهم فيمشوا إلى إحدى القرى القريبة ليحصلوا على ما يعوزهم من الطعام والثياب بالمعروف إن أمكن وإلا فبالقوة .

فوافق الجميع على هذا الرأى ، وبعثوا جماعة منهم للبحث عن جلال الدين فى المواضع البعيدة من الشاطىء ، فعثروا عليه بعد ثلاثة أيام فى موضع بعيد رماه الموج إليه مع ثلاثة من أصحابه ، فقدموا على القوم ففرحوا بنجاة سلطانهم ، وما كادوا يصدقون عيونهم إذ رأوه . فأمرهم أن يتخذوا لهم أسلحة من العصى يقطعونها من عيدان الشجر ففعلوا ما أمرهم به . ثم مشى بهم إلى بعض القرى القريبة منهم فجرت بينه وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها عليهم ، واستلب أسلحتهم وأطعمتهم فوزعها فى أصحابه ، فطعموا من جوع ، وأمنوا من خوف ، وقووا من ضعف . ثم دلف بهم إلى لهاور « لاهور » فملكها واستقر بها مع رجاله ، وبنى حولها قلاعا حصينة تقيه من هجمات أعدائه من أهل تلك البلاد .

فلما اطمأن بها خلا إلى نفسه ، فتذكر ما حل بأسرته من النكبات العظيمة ، واستعرض حوادث أبيه وأمجاده وغزواته وفتوحاته فى البلاد حتى امتدت مملكته من فرغانة إلى أبواب الهند ، وكانت ملوك الأرض تهابه وتخشاه ، وتركع أمامه طلباً لرضاه ، وكانت أموال الدنيا تجبى إليه حتى جاء طوفان التتار ، فصمد لهم